القيم المشتركة في التصوف الإسلامي

رؤية مغربية

الباحث عبد الحي ادخيري
طالب باحث في سلك الدكتوراه
المغرب

مقدمة:

من الواضح أن "التصوف ظاهرة دينية المنشأ،"[1] فهو يمثل "البعد الداخلي للتجربة الدينية ويعمقها، وهذا البعد الداخلي ينتقل فيه المتدين من الإسلام شعيرة إلى الإيمان عقيدة، إلى الإحسان سلوكا [...] مقامات ومحطات يحتاج فيها المتدين إلى الوازع القلبي،"[2] وما التصوف إلا توازن بين المادة والروح، فهو "جسر العبور نحو الصفاء والمحبة والتسامح والإخاء. وخاصة في زمن أصبح فيه الأمن الروحي أعز ما يطلب وأنفس ما يبحث عنه، فكان التصوف الإسلامي سبيلا لتحقيق السلام بكل تجلياته، وأبعاده ومستوياته، ودفع البشرية للعودة إلى المنبع الصافي حيث المحبة لكل الخلق، وترك الشقاق والافتراق، وزرع محاسن الأخلاق وفضائل القيم في النفوس، والتي ترتقي البشرية وتعمر الأرض، وتحيا الإنسانية في أمن ووئام."[3]

المبحث الأول: مفهوم التصوف الإسلامي وأصول وسطيته.

المطلب الأول: مفهوم التصوف الإسلامي.

لقد اهتم عدد كبير من الباحثين القدامى بوضع تعريف مصطلح التصوف، حتى ساق السبكي (ت. 756هـ) في طبقاته "عن ابن الصلاح: ورأيت كتابا في معنى لفظي التصوف والصوفي، جمع فيه من الأقوال الصوفية ألف قول مرتبة على حروف المعجم،[4] فسؤال من قبيل: هل يمكن وضع تعريف المصطلح التصوف؟ قد يكون الجواب عنه بالنفي، وذلك لعدة أسباب أهمها:

أولا: الطابع الفردي الذي يميز التجربة الصوفية، فهي تجربة كشفية وجدانية فردية، فالفرق بين أسرار العرفاني أسرار اللاعقل، وبين أسرار العالم أسرار العقل، هو أن هذا الأخير يتعامل مع أسرار كأشياء يجهلها الآخر، كأمور يعلمها وحده علما مطلقا، وبالتالي فهو لا يعتبرها أسرار لا بالنسبة له هو بل بالنسبة لغيره.[5]

ثانيا: إن التجربة الصوفية تمر بسلم المقامات، والمقامات عند الطوسي معناها مقام العبد بين يدي الله عز وجل، فيما يقام فيه من العبادات ومن المجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله عز وجل،[6] وأما القشيري فقد عرفها بأنها ما يتحقق به العبد بمنازلته من الأدب مما يتوصل إليه بنوع تصرف، ويتحقق به بضرب تطلب ومعاناة تكلف،[7] لذلك فقد تختلف تعاريف متصوفة عاشوا معا في الزمان والمكان ولكنهم اختلفوا في المقامات، كل واحد منهم يعبر عما وجد ونطق بحسب مقامه، والحق أن التصوف لا ينطبق عليه حد واحد.[8]

ثالثا: التجربة الصوفية من علاماتها تضاؤل القدرة على التعبير بالكلام، " قال أبو سليمان الداراني: لو أراد الصادق أن يصف ما في قلبه ما نطق به لسانه،[9] لأن اللسان لا يمكنه التعبير عن كل المحسوسات العسر العبارات، وربما يكون سبب السكوت الميزة البديهية فإنه إذا ورد الكشف عن وصف البعثة خرست العبارات عن ذلك، فلا بيان، ولا نطق، وطمست الشواهد هناك، فلا علم، ولا حس،[10] لذا نجد المتصوفة يلجؤون إلى اللغة الرمزية، كما هو الشأن عند ابن عربي، وجلال الدين الرومي، وابن الفارض وغيرهم للإفصاح عن مضمون ما يشهدون، فالرمز والإيماء من الخصوصيات الضرورية في اللغة الصوفية، إذ بفضله تتمكن من سد النقص النسبي المتأصل في اللغة،[11] وقد كان للجوء

الصوفية إلى الرمز أسباب عدة من أبرزها: اختلاف الفقهاء مع الصوفية في منهج المعرفة،[12] وكذا قصور اللغة العادية وعجزها عن التعبير عن التجربة الصوفية، فاللغة الصوفية تعبير خارق عن عالم خارق.

رابعا: إن التصوف مر بأطوار مختلفة، وعملية نمو تاريخية أدت إلى تجديده لمعان قديمة واكتسابه لأخرى جديدة، فما بدأ بحركة "تصوف حقيقية لأفراد يسعون إلى الاتحاد الشخصي مع الله، فسد في فترة العصور الوسطى، وتحول إلى تقديس لأولياء أصحاب معجزات لا يمت بصلة للتصوف الصوفي الحقيقي."[13]

ومن ثم فإن مفهوم التصوف زئبقي، يتلون تبعا لتنوع التجارب الصوفية واختلافها، إلى درجة أن كل متصوف يمكن أن تجد له تعريفا خاصا به يتفرد به عن غيره من الصوفية،[14] مما لا يجعل تعريفه متطابقا مع تعريف غيره من الصوفية، فقد تكلم الناس في التصوف وما معناه؟ وفي الصوفي ومن هو؟ فكل عبر بما وقع له.

سئل الجنيد عن التصوف فقال: تصفية القلب عن موافقه البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية وإخماد الصفات البشرية ومجانبة الدواعي النفسية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة واتباع الرسول في الشريعة.[15] وقد ورد على لسان ذي النون "قال: رأيت امرأة ببعض سواحل الشام، فقلت لها: من أين أقبلت رحمك الله؟ فقالت: من عند قوم ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[16] قلت: وأين تريدين؟ قالت: إلى رجال لا تلهيهم تجارة عن ذكر الله استنادا إلى قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾.[17] قلت صفيهم لي فأنشأت تقول:

قوم همومهم بالله قد تعلقت فَمَا لَهُم هم تسمو إلى أحد

فمطلب القومِ مَوْلاهُم وَسَيِّدهم يا حُسن مطلبهم للواحد الصمد

ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف من المطامع واللذات والولد

ولا للبس ثياب فائق أنق ولا لروح سُرُور حَل في بلد

إما لمسارعة في إثر منزلة قد قارب الخَطْوَ فِيهَا بَاعِدَ الأبد [18]

وعن أبي يزيد البسطامي قال: التصوف هو طرح النفس في العبودية، وتعليق القلب بالربوبية واستعمال الأخلاق السنية والنظر إلى الله سبحانه بالكلية، وعن ممشاد الدينوري قال: "التصوف صفاء الأسرار والعمل بما يرضي الجبار، وصحبة الناس بلا اختيار،[19] وعن إبراهيم ابن أدهم قال: التصوف علو الهمم عما تنافست فيه الأمم، مخافة أن نزل القدم، والزهد فيما أحل الله تعالى لا فيما حرم.[20] يقول معروف الكرخي: التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق،" وهذا التعريف في جزئه الأول يشير إلى طبيعة الجانب المعرفي للتصوف، وهو معرفة حقائق الأشياء وجوهرها وعدم الاكتفاء مما تدل أو تغطيه ظواهره، وأما الجزء الثاني من التعريف فيشير إلى مقام الزهد، وهو التخلي عما يملكه الناس تقرباً من الله عز وجل.

ويبدو أن الاهتمام بالتصوف قديم، فقد تناوله المؤرخون والعلماء العرب والمسلمون مثل: الكلاباذي والطوسي والقشيري وغيرهم. كما ألف فيه الفلاسفة مثل: ابن سينا، والغزالي، وابن خلدون وغيرهم، وتجادل فيه الفقهاء وعلماء الكلام، إضافة إلى جهود المستشرقين، مثال: ماسينيون، ونيكلسون وغيرهما. ولم يتفق هؤلاء على رأي واحد، حيث اختلفت الآراء وتباينت التصورات حوله.

ونخلص إلى القول: إن التصوف الاسلامي منهج روحي أخلاقي في الحياة، وفلسفة في المعرفة تقوم على القلب والذوق تسمو على معرفة الحواس والعقل، فهو تجربة دينية قائمة على الوسطية والاعتدال في أغلب مجالات الدين والحياة، من هنا يمكننا أن نتساءل: عن ماهية أصول وسطية التصوف الإسلامي؟

المطلب الثاني: أصول وسطية التصوف الإسلامي.

إن ارتباط التصوف الاسلامي بتحقق مقام الإحسان، يقتضي أن تكون وسطية التصوف مستمدة من أصول الإسلام:

أولا: القرآن الكريم.

نزل القرآن الكريم هداية للناس ونورا، ولزوم الوسطية هو عين السراط المستقيم، لذلك جاءت الآيات دالة على منهج الوسطية، وتلك ميزة الإسلام فقد جاء القرآن الكريم "مقررا لمنهج الوسطية في أبواب الاعتقاد، والعادات والحكم، وفي باب الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرها من الأبواب والمجالات" التي تؤكد سماحة الدين الاسلامي ووسطيته، يقود الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾[21] ويظهر من خلال هذه الآية الكريمة، ما يثبت لأمة الإسلام وصف الخيرية والعدالة، أي أنهم يتوقعون بين الإفراط والتفريط، وذلك لتوسطهم في الدين.

إن وسطية القرآن، أقرت التفاوت الفطري والعملي بين الناس، فليس كل الناس درجة واحدة من حيث قوة الإيمان، والالتزام بما أمر الله بع من أوامر، والانتهاء عما نهى عنه من نواه، والتقيد بالمثل العليا، فهناك مرتبة الإسلام ومرتبة الإيمان ومرتبة الإحسان، وهي أعلاهن."[22] ولكل مرتبة أهلها، فهناك الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾،[23] ومن ثم يمكن القول بأن التصوف الإسلامي التمس دعوة القرآن الى الوسطية التي تمثل الخيار الأجود والأفضل بين الخيارات المتوافرة. يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾[24].

ثانيا: السنة النبوية.

حفلت السنة النبوية بنصوص عديدة تؤكد معنى الوسطية في الدين، والبعد عن الغلو والتشدد فيه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة.[25] فهذا الحديث يؤكد المنهج القرآني القائم على الوسطية. وقد روى أنس بن مالك، أنه جاء ثلاثة رهط إلى بيوت النبي، يسألون عن عبادة النبي، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي؟ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا وقال الآخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله إليهم، فقال: أنتم الدين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني[26] وهذا المثال التوجيهي النبوي في الوسطية العبادية، أخذ به العلماء فقعدوا قاعدة فقهية، هي من القواعد الكبرى، والتي عليها مدار الفقه الإسلامي، وهي قاعدة: "المشقة تجلب التيسير"[27] بمعنى أن تكون الأحكام الشرعية في مقدور المكلف من غير عسر أو حرج وبدون مشقة.

كما أن السنة النبوية زاخرة بمظاهر الوسطية والاعتدال، وأن هذه المظاهر تمثل عمدة الدين الحنيف، وأساس السلوك الإسلامي القويم، فلا غرابة أن يستمد التصوف وسطيته من السنة النبوية، كما استمدها من القرآن الكريم، وأيضا من عمل الصحابة والتابعين، فهذا الإمام الشاطبي يصف المتصوفة بقوله: " المقتدون بأفعال السلف الصالح، المتابرون في أقوالهم وأفعالهم على الاقتداء التام والفرار عما يخالف ذلك،

ولذلك جعلوا طريقهم مبنية على أكل الحلال، واتباع السنة والإخلاص، وهذا هو الحق" [28] فالصوفية في الأصول لا يتميزون عن أهل السنة بشيء، وأنهم في الفروع مقتدون بالمذاهب الفقهية السنية الرائجة في أوطانهم، فالصوفية بكل تأكيد ضمن أهل السنة والجماعة، كما نص على ذلك غيرهم.

المبحث الثاني: التصوف المغربي والقيم المشتركة.

المطلب الأول: ماهية التصوف المغربي.

إن أهم ما طبع التجربة الصوفية في المغرب، هو العمل على تزكية السلوك بفضائل الأخلاق، والتعلق بالقرآن والسنة، واقتفاء أثر الرسول الله، ولقد ارتبطت هذه التجربة بأحد كبار أوائل المؤسسين وهو أبو القاسم الجنيد (ت257)، والذي انتهج المنحى السني والأخلاق في السلوك،[29] والذي استطاع أن يوفق بين مقتضيات الشريعة والأخلاق في السلوك، يقول الجنيد كما ورد في حلية الأولياء" لأبي النعيم الأصفهاني علمنا مضبوط بالكتاب والسنة ومن لم يحفظ الكتاب، ويكتب الحديث ولم يتقنه لا يقتدى به. وكانت الملامح البارزة لهذا التصرف هي الزهد والمجاهدة النفسية والإكثار من العبادة والأذكار، بعيدا عن نظريات التصوف الفلسفي.

وقد كان المغاربة على اختلاف فئاتهم الاجتماعية وعبر الفترات التاريخية كانوا مرتبطين ارتباطا وثيقا بالتصوف، ويبدو ذلك جليا في كثير من معالم حياتهم اليومية، كاحتفالهم بذكرى المولد النبوي، ومداولتهم للذكر والسماع بالزوايا المنتشرة في البوادي والحواضر وتبجيلهم لأهل النسبة الشريفة وزيارتهم لأضرحة الأولياء والصالحين، واعتقادهم في كرمات أصحابها، ومواضبتهم على إحياء مواسمها وتحبيسهم العقارات والأراضي والأموال على الزوايا وخزاناتهم العلمية، وغير ذلك من العادات المألوفة لدى في هذا الباب، من هنا يمكن اعتبار التجربة الصوفية مقوما من مقومات الهوية المغربية.

ولا مانع من تقسيم عصور التصوف في المغرب إلى أربعة، طبقا للأسلوب الذي اتبعه ميشيو بيلير:

- ✓ من عهد الجديد وأبي يزيد إلى عهد أبي مدين وعبد القادر الجيلاني.
- ✓ من عهد أبي مدين وعبد السلام بن مشيش إلى زمن الشاذلي في القرن السابع الهجري.
- ✓ من زمن الشاذلي إلى عهد الجازولي / من القرن السابع إلى القرن التاسع الهجري.
- ✓ من عهد الجازولي إلى يومنا هذا / من القرن التاسع إلى القرن الرابع عشر الهجري[30].

ويمكن أن نتبين أثر التصوف المغربي من خلال موقفين منذ ظهوره: الأول تمثل في الدور السلبي للمنتحلين له، من خلال شيوع البدع والخرافات، استغل بعض دجاجلة التصوف الأعراض دنيوية تتمثل في البحث عن الكسب والثراء، وحادوا بذلك عن الطريق المستقيم لذلك ظهر من يدعو إلى التصوف السني الحقيقي، ويفضح هؤلاء الدجالين، ذلك أن علماء المغرب كانوا يتربصون لأهل البدع من الأدعياء والملبسين، [...]أما الموقف الثاني فتمثل في متصوفة مخلصين عملوا جاهدين على نفع الناس، وزهدوا فيما عندهم، بل تكلفوا بالمعوزين منهم، وساعدوا المحتاجين، وكان لهم الدور الفعال في الحياة الاجتماعية والعلمية والسياسية، وقد تمخضت الحركة الصوفية عن نمو وازدهار الثقافة في ربوع المغرب لا سيما البادية ولا يخفى ما أسدته الزاويتان الناصرية والدلائية من أياد بيضاء في هذا الباب[31].

إن التصوف المغربي — بهذا المعنى – يقف سدا منيعا أمام طغيان المادة، وانحلال الأخلاق، وانغماس الناس في متاع الدنيا، فهو الدواء الشافي الذي يحقق الموازنة بين الروح والجسد بغية تحقيق الغاية المرجوة السعادة في الدارين، بعيدا عن مظاهر التدليس والتلبيس التي طفت على بعض ممارسات منتسبي سلوك القوم، حيث لبه إلى بعضها محمد الجزولي في أبيات له، ردا على ما يدعيه الطريقيون، قائلا:

إن الدينَ عِنْدَ الله قَوْل وفعل لا كرقص الراقصينا

ولا نَهْشُ اللَّحُومِ وَلَا شَدْخُ الرؤوس ولا شرب الما سجينا

وَإِنَّ الذِّكْرَ لَيْسَ بِقَرْعَ طَبْلٍ وَمِزْمَارٍ عَلا دفنا لعينا

وإن الدينَ مِن هَذَا بَرَاءٌ وأَن اللهَ يَجزي المدعينا

وإن سُؤالكَ المخلوقَ شركٌ وقد لعن الله الفَاعِلِينا [32]

المطلب الثاني: التصوف المغربي وسؤال القيم.

تعددت تعاريف القيمة وتنوعت انطلاقا من الزاوية التي تم التركيز عليها، فهناك من رأى أن القيمة ما يرتفع بالفرد إلى المنزلة المعنوية، ويكون مصدر القيم في الأساس الدين، فالإنسان لا يكون مصدر القيم وإنما أداة تتجسد فيه القيم،[33] كما أن القيمة حكم يصدره الإنسان على شيء ما مهتديا بمجموعة من المبادئ والمعايير التي ارتضاها الشرع محددا المرغوب عنه من السلوك[34]

كما تعمل القيم على تحديد الموازين التي تكفل حياة طيبة للإنسان، فتتدخل في ضبط النظام العلائقي وتطويره، فتعتبر القيم حقائق أساسية هامة في البناء الاجتماعي وهي لذلك تعالج من منظور سيوسيولوجي على أنها عناصر بنائية، تشتق أساسا من التفاعل الاجتماعي حيث يصب اهتمامهم على بناء النظم ووظيفتها وأنواع السلوك، وعلاقتها بهذه النظم من منظور جماعي، فالفعل الإنساني يتميز ببعده الأخلاقي القيمي متمثل في القواعد المعيارية

المنظمة للسلوك الإنساني، وتشكل الظروف الخارجية علامة محورية في تشكيل بنية السلوك.[35] ولذلك ارتبطت الأخلاق بالإرادة، فكانت القيمة الأخلاقية هي قيمة الإرادة، كما أن الحقيقة قيمة المعرفة، والجمال قيمة التخيل، والحب قيمة القلب.[36] كما أن القيم الأخلاقية تختزل ما يستهدفه الشرع من ترقية الإنسان، على اعتبار أنها القيمة التي تحقق الفضيلة. ومن الجائز تعريفها بأنها " ما ينبغي فعله، بمعنى أن الفعل هو فعل شيء ما، فالقيمة الأخلاقية هي قيمة العمل.[37]

كما أن الاشتغال على نشر المحبة والتآلف بين بني الإنسان الهدف الأسمى الذي تحققه البشرية، لأنه بذلك يطغى المشترك الإنساني العام كل مجالات الأنشطة الإنسانية، وداخل هذا المجال الإنساني العام تبرز القيم الإنسانية المشتركة التي لا تختلف عليها الأديان والحضارات، فهي قيم إنسانية عامة جمعت البشرية قديما.

والجدير بالذكر أن وثاقة التصوف في علاقته مع روح الإسلام وذلك أن التصوف في حد ذاته ما هو إلا الإسلام في شموله وسموه وروحه العالية المتألقة، فهو كما انتهى إليه التعريف الشامل عبارة عن حفظ الشريعة، وحسن الخلق، وسلب الإرادة الله. لذلك لا مناص من تربية النفس وتطهير القلب ليكون مع الله تعالى كل حين، وذلك عبر " التحلي ثم التخلي ثم التجلي" أي بتخلية القلب من كل الامراض المعنوية من قبيل: الشرك والنفاق والرياء والغرور والحسد. ثم بتحليته وذلك بتزيينه بالأخلاق والأعمال الصالحة التي تجلب محبة الله تعالى من قبيل: الرحمة والرأفة والكرم والصبر والإيثار. ثم تأتي مرحلة التجلي، أي السير نحو معرفة الله ومحبته.

والظاهر أن هذا القول ينطبق لامحالة على النموذج الصوفي المغربي، نموذج شكلت الزوايا فيه تجسيدا عمليا لفكرة التصوف، فلفظ الزاوية " هو مصطلح خاص بالمغاربة، أما في المشرق فتعرف ب " خانقاه" وقد تأسست بقصد تلقين المريدين القيام بشعائر الصوفية"[38] وقد ارتبط التصوف المغربي ارتباطا وثيقا بترقية الأخلاق. فالواجب الأخلاقي يكون له معنى فقط حين يتمثل في نسيج العلاقات التي يقيمها الإنسان في حياته مع غيره من الناس في علاقات الأسرة والجوار، وعلاقات الإنتاج والاستهلاك ومعاملات التجارة، والاتصال والتنقل، وعلاقات التنافس والصراع والحرب والسلم، فالقيم الأخلاقية تبقى تصورات مثالية إذا لم تتحقق في علاقات البشر وحياة المجتمعات.[39]

وقد أسهمت الرؤية الوسطية للتصوف في إحياء روح التعاون. والاستفادة من التعارف مع الغير من أجل إيصال الدعوة إليه، والحوار الإيجابي مع المسلم وغير المسلم، حيث نجح هذا الحوار بسبب الاعتراف بالاختلاف بين الناس، وهكذا، تمكن التصوف المغربي من عبور القارات، والاستيطان في الجزر البعيدة، وذلك بفضل انفتاح الصوفية وقدرتهم على نسج علاقات تألف بين الأرواح قبل الأشباح في سياق حوار القلوب، ويظل الصوفي كما قال الجنيد كالأرض، يطؤها البر والفاجر، وكالسماء يظل كل شيء، وكالمطر يسقي كل شيء.

كما أن مفهوم التسامح يسجل حضوره البارز في عمق التجربة المغربية، تجربة استطاعت، وبفضل دبلوماسية دينية، أن تعكس صورة التدين السليم القائم على الفضائل والمكارم وحسن الأخلاق، لذلك فلا غرابة أن نجد للتصوف المغربي، امتدادا عميقا في عديد من الدول إفريقية[40]، وكذا في الولايات المتحدة الأمريكية[41].

إنها تجربة تقوم على المحبة والمودة والأخوة، وهي قيم جاء بها النص القرآني، يقول الله تعالى يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا للتعارفوا سورة الحجرات الآية 13. فالتعارف سبيل الى البعد عن نزعة العنف والكراهية التي مزقت المجتمع الإنساني في مختلف أنحاء المعمور.

وقد قدمت المدرسة الصوفية المغربية لدول العالم، نموذجا مثاليا في اتجاه حب الخير للآخرين، وذلك أن متصوفة المغرب نزلوا بالتصوف إلى المعيش اليومي، فشاع التصوف في المغرب، وأصبح جزءا من مقومات الهوية المغربية.

خاتمة.

خلاصة لما سبق، يمكن القول؛

- إن التصوف ظاهرة إنسانية تمثل طريقة للتقرب إلى الله عز وجل، فقد جاء رد فعل طبيعي للتطورات السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية خلال القرون الأولى للإسلام، اتخذ مظاهر مختلفة تعددت جوانبها، واختلفت صيغها، وامتد نفوذها إلى أن عمت العالم الإسلامي.
- إن التصوف الاسلامي؛ تجربة مرتبطة بتحقيق مقام الإحسان، مقام مقرر ضمن مكونات الدين الإسلامي، مما يقتضي أن تكون وسطية التصوف مستمدة من أصول الإسلام، وهي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.
- إن التصوف الإسلامي نجح في نشر فكرته الدينية القائمة على الوسطية والاعتدال وقبول الآخر ونشر ثقافة السلم والتسامح، وهي سمات تميز بها التصوف المغربي، تصوف من جملة مميزاته أنه؛

–من الثوابت الدينية للأمة، ومكون أساس من مكونات هويتها. وهو كذلك دعوة إلى تحسين الأخلاق وتزكية النفس، وذلك عبر الزهد والصبر والمجاهدة والمكابدة. فهو تجربة ذوقية داخلية نابعة من التعلق بالله عز وجل وإخلاص النية له سبحانه.

– له الأثر الكبير في توجيه العامة وتلوين جميع مرافق حياتهم، ويظهر ذلك من خلال النشاط المختلف الذي اضطلعت به الطرق الصوفية عبر الزوايا المختلفة، وقد كان لهذه الزوايا الأثر البارز والحضور الفعال في مختلف أنشطة الحياة المتنوعة، كما نهضت بالكثير من الأعباء الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية..

- إن القيم المشتركة في التصوف الإسلامي، هي دعوة إلى التواصل مع الآخر لا إقصاءه، محاورته لا رفضه، التكامل معه لا عزله، خصال من بعض مميزات التصوف المغربي، تصوف نجح في تسويق رؤية للكون والوجود ونشر فكرته الدينية القائمة على الوسطية والاعتدال، وقبول الآخر ونشر ثقافة السلم والتسامح.

وهذا ما يجعل من التصوف في المغرب نموذجا من الفكر الديني المعتدل والسلوك الإنساني القويم، لذلك ظل التصوف المغربي حيا متجددا باستمرار، وقابلا لاستيعاب الآخر واحتوائه، فقد دأب التصوف المغربي على القيام بدور أساسي في نشر العلم والمعرفة، فلم يكن خطابا جامدا على نفسه، أو منعزلا عن مجريات عصره، وإنما شكل حضوره في عمق السياق المجتمعي ضرورة لخلق التوازن بين المادة والجوهر.

الهوامش:

[1] فلسفة التصوف في الاديان، عيد درويش، دار الفرقد. دمشق، ط 1،2006.، ص8.

[2] التصوف بين المدارس والممارسة، إسماعيل راضي. منشورات الرابطة المحمدية للعلماء بالرباط، ومركز الجنيد للدراسات والبحوث الصوفية المتخصصة، وجدة، ط 1. 2012، ص 31-32.

[3] التصوف الإسلامي. نحو رؤية وسطية، خالد التوزاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. لبنان، ط1 2017. ص 9-10.

[4] الطبقات الشافعية، تاج الدين السبكي، تحقيق محمد الصنهاجي، عبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، ج 5 ص 140.

[5] البنية العقل العربي، محمد عابد الجابري المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1986، ص 386.

[6] اللمع، أبو نصر السراج الطوسي، حققه وقدم له وخرج أحاديثه: عبد الحليم محمود وطله عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المتنبي. ط 1960 ص 65.

[7] الرسالة القشيرية أبو قاسم القشيري تحقيق: عبد العليم محمود محمود ابن الشريف. 1989 ج 1 ص 204.

[8] شفاء السائل التهذيب المسائل، ابن خلدون تحقيق محمد مطبع حافظ دار الفكر دمشق 1992 ص 94.

[9] الرسالة القشيرية، أبو قاسم القشيري، م س. ص 366.

[10] نفس المرجع ص 227.

[11] شعرية الخطاب الصوفي، محمد يعيش، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس فاس، 2003 ص 95

[12] نفس المرجع ص 136.

[13] الصوفية نشأتها وتاريخها، نابل جرين، ترجمة صفية مختار، مصطفى محمد فؤاد، مؤسسة هنداوي 2017 ص 23.

[14] التصوف الإسلامي، خالد التوزاني ص 30.

[15] التعرف المذهب أهل التصوف، الكلابادي، أرثر جون أربري، مكتبة الخانجي القاهرة، ص 9.

[16] سورة السجدة، الآية 16.

[17] سورة النور، الآية 37.

[18] التعرف المذهب أهل التصوف الكلابادي، م س. ص 10

[19] تهذيب الأسرار في أصول التصوف، أبو سعد النيسابوري، دار الكتاب العلمية، ص 18

[20] نفس المرجع، ص 11

[21] سورة البقرة، الآية: 143.

[22] التصوف الإسلامي. نحو رؤية وسطية، خالد التوزاني،مرجع سابق. ص 134.

[23] سورة فاطر الآية 32.

[24] سورة الفرقان الآية 67.

[25] أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب الدين يسر، حديث رقم 39. ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، حديث 2816.

[26]. رواه البخاري في صحيحه في كتاب النكاح. باب الترغيب في النكاح (الحديث 3063) 7/2. واللفظ له، ورواه مسلم في صحيحه من كتاب النكاح. باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه. ووجه مؤنه. واشتغال من عجز من المؤن بالصوم. (الحديث 1140) 2/1020.

[27] [27] ينظر جلال الدين السيوطي (ت911هـ) الأسباب والنظائر في قواعد وفروع الفقه الشافعي. دار الكتب العلمية. بيروت ط1 1983.ص86. وأيضا القواعد الفقهية الخمس الكبرى، والقواعد المندرجة تحتها، ضمن مجموع الفتاوي لابن تيمية صص 233-239.

[28] أبو إسحاق. الاعتصام دار المعرفة للطباعة والنشر. بيروت. د.ت. ص 266.

[29] نظريات في التصوف المغربي، محمد العدلوني الإدريسي، دار الثقافة 2006 ص 84.

[30] نظريات في التصوف المغربي محمد العدلوني الإدريس، م س، ص 85

[31] معلمة التصوف، عبد العزيز بن عبد الله، ج 1 صص 71. 73

[32] ابراهيم السولامي الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية، دار الثقافة الدار البيضاء، 1974 من 91-92

[33] دراسات في نظرية الاتصال، عزي عبد الرحمن، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط1، 2003، ص 106

[34] الصراع القيمي لدى الشباب، الشحات أحمد حسن، دار الفكر العربي، القاهرة مصر. د.ط. 1988.ص 68.

[35] تأملات في الفلسفة الأخلاق، الرجب منصور علي، مطبعة مخيمرة، القاهرة، مصر، ط 1959، ص 181.

[36] العوا عادل العمدة في فلسفة القيم، دار طلاس، دمشق، سوريا، ط 1986، ص 441

[37] المرجع نفسه، ص 440

[38] التصوف المغربي وتاريخه، محمد علي بن الصديق، دعوة الحق، عدد 280. السنة 23 غشت 1991، ج 2. ص 68.

[39] منظومة القيم العليا التوحيد والتزكية والعمران، ملكاوي فتحي حسن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، و.م.أ، ط1، 2013، ص 55

[40] لقد تأثرت بلدان إفريقيا بتصوف أهل المغرب من خلال تلاميذ الشيخ مولاي عبد السلام بن مشيش والشيخ أبي الحسن الشاذلي، فأنشئت رباطات وزوايا كان لها أتباع كثر بكل من الجزائر وتونس على عهد الدولة الحفصية، وكذا ليبيا مع الدولة السنوسية، وصولا إلى السنغال ودولة ماسنا في مالي والدولة السوكتية في نيجيريا والتشاد والسودان وإثيوبيا وغيرها. للمزيد من التفصيل ينظر: التصوف في إفريقيا. الموقع الإلكتروني لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة.

[41] ينظر: عزيز الكبيطي إدريسي، التصوف الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية: مظاهر حضور التصوف المغربي وتأثيراته، دار الكتب العلمية في لبنان سنة: 2013م.